كتـــاب (حليفنا صـــدام)
الباب الرابـــع
تمارين بهلـــوان الحبـــال

ترجمة: سلام العبودي

بعد نشرها الباب الأول من كتاب (حليفنا صدام)، تعود (المدى) لتنشر الباب الرابع منه الذي يسلط ضوءً إضافياً على الدور الذي لعبه ""اللوبي العراقي" في فرنسا لمساندة تطلعات صدام حسين، وعلى فهم الصناعيين الفرنسيين - وفي مقدمتهم "عصابة الأربعة"- أن السوق العراقي أصبح مفتوحاً أمامهم. كما يظهر هذا الباب كيف وصلت العلاقات بين البلدين بسرعة حتى إلى ميدان أكثر خطورة وحساسية. وهو ليس مشتريات الأسلحة الفرنسية، التي فاوض صدام حسين ضيفه بشأنها، ولكن التعاون النووي. فصدام أراد، وشيراك وافق على ما طلبه منه.

الفصل الأول
الخط الإيراني لرولان دوما

دفعت فرنسا غالياً ثمن مساندتها للعراق. ففي ٦ تموز ١٩٨٣، اختطف ستة من المعارضين لنظام خميني طائرة بوينغ ٧٠٧ تابعة للخطوط الجوية الداخلية الإيرانية. وقد هبطت الطائرة في اليوم التالي في مطار أورلي. فتوجه مسعود رجوي، زعيم حركة مجاهدي الشعب (مجاهدي خلق)، اللاجئ في فرنسا منذ سنتين، إلى المطار بموافقة من وزير الداخلية. وقام بالتفاوض مع الخاطفين، وحصل منهم على إطلاق سراح الرهائن كافة واستسلام جماعة الفدائيين (الكوماندو) الخاطفين. وفجأة، تأزمت العلاقات بين باريس وطهران أكثر بقليل مما كانت عليه. ولم يتردد وزير الخارجية الإيراني في تشبيه ميتران بـ(دونكشوت على حصان من خشب) وفي وصف باريس بكونها (عاصمة الثورة المضادة والإرهاب الداخلي).

بعد مضي شهرين تقريبا، في ٢٨ تشرين الأول ١٩٨٣، تحطمت مركبة محملة بتسعمائة كيلوغرام من المادة المتفجرة TNT، عندما صدمت المقر العام لقوات مشاة البحرية (المرنز) الأمريكيين من القوات المتعددة الجنسيات، الواقع قرب مطار بيروت. وقد كانت الحصيلة: مائتين وواحداً وأربعين قتيلاً و مئة وخمسة جرحى. وبعد تنفيذ هذه العملية بثلاث دقائق فقط، انفجرت مركبة انتحارية أخرى استهدفت مبنى الدراكار Drakkar، مقر وحدة المظليين الفرنسيين. وكانت الحصيلة: ثمانية وخمسين قتيلاً وخمسة عشر جريحاً. ولقد وجهت أصابع الاتهام للإيرانيين. ولم يتردد بعض كبار موظفي وزارة الخارجية في أن يربطوا، إلى يومنا هذا، ما حصل في بيروت بإعارة طائرات السوبرايتندار للعراق. بينما "فسر" آخرون سبب حادثي الاعتداء فقط بوجود القوات الفرنسية والأمريكية في لبنان.

أكد أحد الدبلوماسيين: "إن المساعدة المقدمة للعراق قد استمرت بعد الحادثين، وبكثافة دائماً؛ ولكن الأسئلة بدأت تطرح في وزارة الخارجية. فقد كانوا عديدين من هم يعتقدون أن هذا الوضع لم يعد من الممكن أن يستمر أكثر!"

أصبحت العلاقات مع طهران ملف السياسة الخارجية الأكثر حساسية. وكان ميتران يدرسه مع رولان دوما Roland Dumas، الذي يساعده سراً. فمنذ فترة طويلة ورولان دوما أحد مستشاري الرئيس ومنفذي دبلوماسيته الموازية. ولأنه مناور بارع ويتمتع بسحر خاص، فقد عرف كيف يغري، في وقته، على السواء من كانوا رؤساء دول كما العقيد القذافي، وهوفويه بواني Houphouët-Boigny، والحسن الثاني أو الغابوني عمر بونغو Omar Bongo. في هذه المرة، كان الأمر يتعلق بالنسبة لدوما قيامه بسبر غور الإيرانيين دون أن يتسبب ذلك بقطيعة مع العراق.

❖ ❖ ❖

تعود الاتصالات الأولى إلى عام ١٩٨٤، حين التقى صادق طباطبائي، الذي يمت بصلة قرابة بعيدة بالخميني، والذي كان سابقاً نائب رئيس الوزراء الإيراني، بـرولان دوما، في باريس، يوم ٢١ حزيران. وعندما علم كلود شيسون بهذه المبادرة، لم ترق له لسببين. إنها قبل كل شيء لا يمكن إلا أن تثير غضب العراقيين. ومن ثم، فإن هذا الإقحام لرولان دوما في شؤون الشرق الأدنى يثبت أن وصوله إلى وزارة الخارجية أصبح قريباً. ومن جانب آخر، تتابعت المحادثات مع طباطبائي، في بوردو Bordeaux بشكل خاص، لأن دوما يمتلك داراً ليس بعيداً عن هذه المدينة.

بعد ذلك بستة أشهر، في كانون الأول ١٩٨٤، حصل ما كان متوقعاً: لقد حل دوما في محل شيسون. وقد تلقى توجيهين من ميتران: تسوية نزاع إيروديف Eurodif، وتحسين العلاقات مع طهران (٤١).

لم تكن الساحة مهيأة كثيراً، فقد سبقه إليها كثيرون. إن كلاً من ألمانيا وبريطانيا وإيطاليا واليابان كانت قد بدأت بتحسين علاقاتها التجارية بشكل متزايد مع إيران. وكان القلق يساور عدداً من الوزراء مثل بيار بيريغوفوا Pierre Péré-govoy وكذلك العديد من الصناعيين من رؤية استمرار نشاط منافسيهم هؤلاء تحسبا لفترة ما بعد الحرب، دون أن يكون لفرنسا نصيب من ذلك.

أكد مستشار مقرب من ميتران: "إن اللوبي المؤيد لإيران كان نشطاً جداً آنذاك". وأضاف بغموض: "إن سلطات عليا تشكل جزءاً من هذا اللوبي."

وربما كان البرهان على ذلك تلك المذكرات التي ازداد عددها والتي كانت تحث الرئيس باستمرار على عدم تجاهل إيران، وليس ذلك فقط لأسباب تجارية عادية. وكان بعض الدبلوماسيين يذكرون بحقيقة "جيوستراتيجية" واضحة ويؤكدون أن من الخطورة عزل طهران بشكل تام، وليس من غير المفيد ردعها عن تنفيذ تهديداتها ضد فرنسا.

❖ ❖ ❖

حال استقراره في وزارة الخارجية، استشار رولان دوما القائم بالأعمال الفرنسي في طهران، جان بيران Jean Perrin. وقد بدا هذا الأخير متحفظاً جداً، وقال: "لا تثق كثيراً بالإيرانيين. في رأيي، بجب التقدم ولكن بحذر.

وقد شكلت تسوية نزاع الأيروديف خطوة أولى ممتازة، لم تسيء إلى العلاقات الجيدة مع العراق. وقد لعب المصرفي جان بيار فرانسوا Jean-Pierre François، المتزوج من إيرانية والصديق الشخصي لميتران ودوما، دور الوسيط لمحاولة إزالة الغموض الذي اكتنف هذا الملف الشائك. ولقد ساند بيار بيريغفوا، وزير المالية، هذه المبادرة؛ لكن شارل إرنو، الذي بقي في منصبه وزيراً للدفاع، لم يكن راضياً عنها.

❖ ❖ ❖

تعود الاتصالات الأولى إلى عام ١٩٨٤، حين التقى صادق طباطبائي، الذي يمت بصلة قرابة بعيدة بالخميني، والذي كان سابقاً نائب رئيس الوزراء الإيراني، بـرولان دوما، في باريس، يوم ٢١ حزيران. وعندما علم كلود شيسون بهذه المبادرة، لم ترق له لسببين. إنها قبل كل شيء لا يمكن إلا أن تثير غضب العراقيين. ومن ثم، فإن هذا الإقحام لرولان دوما في شؤون الشرق الأدنى يثبت أن وصوله إلى وزارة الخارجية أصبح قريباً. ومن جانب آخر، تتابعت المحادثات مع طباطبائي، في بوردو Bordeaux بشكل خاص، لأن دوما يمتلك داراً ليس بعيداً عن هذه المدينة.

بعد ذلك بستة أشهر، في كانون الأول ١٩٨٤، حصل ما كان متوقعاً: لقد حل دوما في محل شيسون. وقد تلقى توجيهين من ميتران: تسوية نزاع إيروديف Eurodif، وتحسين العلاقات مع طهران (٤١).

لم تكن الساحة مهيأة كثيراً، فقد سبقه إليها كثيرون. إن كلاً من ألمانيا وبريطانيا وإيطاليا واليابان كانت قد بدأت بتحسين علاقاتها التجارية بشكل متزايد مع إيران. وكان القلق يساور عدداً من الوزراء مثل بيار بيريغوفوا Pierre Péré-govoy وكذلك العديد من الصناعيين من رؤية استمرار نشاط منافسيهم هؤلاء تحسبا لفترة ما بعد الحرب، دون أن يكون لفرنسا نصيب من ذلك.

أكد مستشار مقرب من ميتران: "إن اللوبي المؤيد لإيران كان نشطاً جداً آنذاك". وأضاف بغموض: "إن سلطات عليا تشكل جزءاً من هذا اللوبي."

وربما كان البرهان على ذلك تلك المذكرات التي ازداد عددها والتي كانت تحث الرئيس باستمرار على عدم تجاهل إيران، وليس ذلك فقط لأسباب تجارية عادية. وكان بعض الدبلوماسيين يذكرون بحقيقة "جيوستراتيجية" واضحة ويؤكدون أن من الخطورة عزل طهران بشكل تام، وليس من غير المفيد ردعها عن تنفيذ تهديداتها ضد فرنسا.

❖ ❖ ❖

حال استقراره في وزارة الخارجية، استشار رولان دوما القائم بالأعمال الفرنسي في طهران، جان بيران Jean Perrin. وقد بدا هذا الأخير متحفظاً جداً، وقال: "لا تثق كثيراً بالإيرانيين. في رأيي، بجب التقدم ولكن بحذر.

وقد شكلت تسوية نزاع الأيروديف خطوة أولى ممتازة، لم تسيء إلى العلاقات الجيدة مع العراق. وقد لعب المصرفي جان بيار فرانسوا Jean-Pierre François، المتزوج من إيرانية والصديق الشخصي لميتران ودوما، دور الوسيط لمحاولة إزالة الغموض الذي اكتنف هذا الملف الشائك. ولقد ساند بيار بيريغفوا، وزير المالية، هذه المبادرة؛ لكن شارل إرنو، الذي بقي في منصبه وزيراً للدفاع، لم يكن راضياً عنها.

أكد أحد مساعدي الرئيس: "أن بوصول رولان دوما إلى الخارجية، بدأت القرارات التي يتم تبنيها أكثر توافقاً مع ما كان يتمناه ويرغب به الرئيس ميتران حقيقة".

كانت عملية تطبيع العلاقات تجري سراً دون أن يعرف دبلوماسيو الوزارة من يلتقي الوزير، ونتائج مباحثاته أو هدف المناورة. وفي الأليزيه، كان المستشار الدبلوماسي جان مستيلي Jean Musitelli وصديق ميتران فرانسوا دي غروسوفر François de Grossouvre المحاورين الوحيدين لدوما.

اعتباراً من عام ١٩٨٥، أصبح تحسين العلاقات مع طهران أكثر من ضروري. ففي ربيع تلك السنة، جرى اختطاف أربعة فرنسيين في بيروت؛ ويبدو أن الإيرانيين هم الوحيدون القادرون على التأثير على المجموعات التي تحتجزهم (٤٢). وفوراً، أرسلت الخارجية الفرنسية مبعوثين إلى الشرق الأوسط، ونصح أحد الدبلوماسيين رولان دوما، وهو مقرب منه، في مذكرة من عشرين صفحة بعثها إليه، عنوانها: ما العمل؟، بأن يستدير بعقلانية أكثر نحو إيران "فهناك بوجد مفتاح إطلاق سراح الرهائن"، كما كتب في مذكرته.

اقتنع دوما بذلك، غير أن الاتصالات بقيت على مستوى شبه رسمي، فالصداقة بين فرنسا والعراق قد بقيت هي العقبة.

كانت محاولات التقارب مع إيران تثير قلق الغربيين الذين يتاجرون مع الجمهورية الإسلامية، فالألمان والبريطانيون ينظرون بعدم رضا لوصول منافس محتمل إلى السوق الإيرانية. ولكن الذين ثاروا أكثر هم رؤساء الدول العربية ودبلوماسيوهم، وأعلموا باريس بذلك. ولم يفت سفير العراق، يسانده ممثلو إمارات الخليج الغنية ومصر، فرصة ليكرر أن مصلحة فرنسا في احترامها لصداقاتها،

❖ ❖ ❖

تفترض الصداقة أن يحسب حساب الأمور بشكل جيد، إلا أنه مضى أكثر من سنة والأمر ليس كذلك. ففي شباط ١٩٨٤، جاء نائب الرئيس العراقي، طه ياسين رمضان، إلى باريس، للتفاوض على هذا الخلاف المالي. وقد أكد، رغم كل شيء، أمام الصحفيين أن تعبير "دين" غير صحيح، موضحاً "إن فرنسا صديقتنا". أما بيار موروا، فبعد أن رحب بهذا العراقي القصير القامة، الممتلئ، الذي تغوص رقبته بين كتفيه، والذي كان يشكره على إعارة طائرات السوبرايتندار، رد عليه: "نحن أصدقاؤكم المخلصون، لكن ذلك قد كلفنا غالياً."

الديون العراقية ثقيلة والخلافات متعددة إلى حد يضطر الوزراء إلى التدخل. ففي تموز ١٩٨٤، زارت أديث كريسون Edith Cresson، وزيرة التجارة الخارجية، بغداد لتدافع عن موقف شركتي فوجرول Fouge-rolles و سبي - باتنيول Spie-Patignolles اللتين تبنيان مطار بغداد الكبير وتشكوان من النفقات الإضافية التي يرفض العراقيون تسويتها.

❖ ❖ ❖

إن رحيل بيار موروا ومجيء لوران فابيوس Laurent Fabius إلى رئاسة الوزارة، في منتصف تموز ١٩٨٤، قد أشر منعطفاً. فالأسلحة المتعاقد عليها يجري شحنها، بشرط الدفع فورا. فيما يتعلق بالطلبات الجديدة، فإنها تتم دراستها تفصيلياً وبدقة لأن الديون العراقية في العقود المدنية تزداد بشكل منتظم. وكحل توفيقي، اقترح وزير المالية أن تشتري الشركات الفرنسية، بسعر معقول، المزيد من النفط العراقي.

أصبح الأمر مسألة وقت، حيث أن الدائرة العمومية للجو، التي نسب لها لاحقاً دور بيع طائرات مقاتلة، قد تم تكليفها بأداء دور الوسيط بين الشركات النفطية الفرنسية وبغداد(٤٣). وقد كانت الأسعار العراقية مرتفعة جداً أحياناً. وسعت الدائرة العمومية للجو من أجل الحصول على تخفيض لصالح الشركات الفرنسية. وكانت الدولة تخسر في ذلك بعض الشيء، ولكن من حيث المبدأ، كان هذا الأسلوب لا بد من أن يمكن العراق من الإيفاء بتعهداته.

❖ ❖ ❖

بغداد ترغب دائماً بالمزيد

في نهاية عام ١٩٨٤، قدم العراقيون طلبية قيمتها خمسون ملياراً: مائتان من الأكسوسه، تسع وستون من طائرات ميراج ٢٠٠٠، صواريخ أرض - جو AS30 موجهة بالليزر وسمتيات نوع سوبر-بوما. وطلب كهذا اعتبره الأليزيه غير معقول. والأكثر من هذا غير معقولية، إن العوض النفطي المعروض من قبل العراقيين، غير مضمون على الإطلاق. وقد انضمت وزارة الخارجية وحتى شارل إرنو إلى رأي الرئيس.

قبل العراقيون على مضض بهذا الرفض الجاف. وفي البرقيات التي بعثها إلى وزارته، أصر سفير فرنسا في بغداد على تبيان سوء مزاجهم، وأكد أن صدام حسين منزعج؛ واستناداً إليه، فإن محك الصداقة الفرنسية - العراقية يبقى هو شحنات الأسلحة وإعادة بناء مفاعل تموز، وهذا هو رأيه الثابت.

كان لدى فرانسوا ميتران، هو الآخر، بعض الأسباب التي تدفعه للشكوى. فالإسناد الذي تمنحه باريس للعراق لا يأتي بمردود إلى حد ما، وبشكل خاص في مجال الطلبات المدنية، فمنافسو الشركات الفرنسية يعاملون في الواقع بشكل افضل.

❖ ❖ ❖

في ٢٧ تشرين الأول ١٩٨٥، قام رولان دوما بزيارة إلى بغداد ليطمئن العراقيين الذين يشكون بأنه موال لإيران عن قناعة، وللحصول على دفع جزء من الديون العراقية. وقد حظيت زيارة الوزير برعاية جيدة. فقبلها بشهر، حصل العراقيون على توقيع عقد بشراء أربع وعشرين طائرة ميراج ف,١ مرة أخرى، طالب طارق عزيز باستئناف التعاون النووي. وناقش دوما هذا الموضوع لمدة نصف ساعة.

وقد أصر على القول: "لقد أعطيتم التزامات، ووعدكم السعوديون بتمويل إعادة بناء مفاعل تموز."

ولقد راوغ دوما، واقترح أن من المناسب إعادة دراسة المشروع بأكمله.

وكان هذا الاقتراح مناسبة جديدة حثت وحملت العراقيين على الاعتقاد بأن باريس تتهيأ للتسليم بمطالبهم النووية. ألم يطلب الإسرائيليون مؤخراً من فرنسا أن تشحن لهم مفاعلاً بقدرة تسعمائة ميغاواط، وكذلك اليورانيوم المخصب جداً لأجل مفاعل الأبحاث لديهم؟

جرى حينذاك نقاش حول الفرصة المناسبة لإقامة مقارنة تناظر بين الطلبات الإسرائيلية والعراقية. (أعيد طرح الفكرة مجدداً في وقت لاحق بعد سنتين، من قبل جاك شيراك، أثناء فترة التعايش في الحكم مع الاشتراكيين.) فإذا ما قررت الحكومة الفرنسية تلبية الطلب الإسرائيلي، فيجب أيضاً مساعدة العراق. وقد كان كل من مفوضية الطاقة الذرية، وشركة فراماتوم، وبعض دبلوماسيي الخارجية يؤيدون لعبة "الميزان المتعادل" هذه.

بعد أن أحيطوا علماً عن يقين بهذا التغيير في الموقف لصالحهم، استغل العراقيون الفرصة. وقد أبرق السفير موريس كوراج إلى الخارجية لينقل إليها هذا الخبر الجيد: "إذا ما وافقنا على إعادة بناء مفاعل تموز، فإن بغداد لن تحتج ضد بيع محتمل لمفاعل إلى إسرائيل." بقي فرانسوا ميتران صارماً. ولم يحصل العراق على مفاعل بحث نووي جديد.

الفصل الثاني

شراكة حرب سرية جداً

ابتداءً من ١٩٨٤ لغاية ١٩٨٦، غدت العقود الجديدة لشراء أسلحة تبرم بصورة نادرة أكثر من ذي قبل؛ بيد أن هذه الكبحة، المرغوب بها من قبل ميتران ودوما، في حين أثارت غضب العراقيين، لم تدحض المشاركة الخفية من جانب فرنسا في النزاع بين العراق وإيران. فشحنات الأسلحة قد تواصلت، وبدون انقطاع، بفضل الطلبيات العديدة التي جرى التعاقد عليها سابقاً، والتي لا تمثل سوى الجزء المرئي من تكفل سياسي وتجاري. فمع بداية الحرب، وبخطوات واسعة، دخلت فرنسا شريكة في الصراع.

كثيرون هم الذين حثوها أو شجعوها على سلوك هذا النهج، سواء في الغرب كما في العالم العربي. فأثناء الزيارة الأولى من قبل كلود شيسون للقاهرة، في ١٩٨١، عبر له الرئيس المصري، أنور السادات، الذي لم يمض وقت طويل حتى سقط صريع طلقات رماها نحوه فدائي من الإخوان المسلمين، .. عبر عن قلقه قائلاً:

"إذا كسبت إيران، وإذا انتصر المذهب الشيعي، قد تتم الإطاحة بي."

وفي المغرب، صرح الملك الحسن الثاني لشيسون نفسه:

"إذا وصل جنود خميني حتى مدينة كربلاء المقدسة، فإن الشيعة سيصبحون بعد ذلك هم حراس كافة الأماكن المقدسة. ولم لا تكون القدس من ضمنها؟"

والأمريكيون لم يكونوا في استراحة. فهم كانوا يرسلون للعراقيين ما يغذي خططهم وماكنة حربهم، خاصة المعلومات الاستخبارية التي يحصلون عليها بواسطة أقمار المراقبة لديهم حول تحركات القطعات الإيرانية. وفي باريس، وأثناء استقبال شارل إيرنو في مأدبة غداء، هنأ السفير العراقي المشاط نفسه صراحة على علامة التضامن الأمريكي هذه مع بلده الذي يخوض حرباً.

كانت الأرضية ملائمة إذن للذهاب إلى مدى أبعد من مجرد بيع أسلحة. فالمجمع العسكري - الصناعي، الذي كان يمتلك منذ زمن طويل شبكة من الصداقات الوفية في الإدارات والوزارات والعالم السياسي، لم يحرم نفسه من ذلك. وأحياناً، حتى دون علم المسؤولين الفرنسيين.

وقد أقر بذلك مستشار سابق في السفارة الفرنسية في بغداد:

"لقد خضنا الحرب، دون أن نبوح لأحد بذلك. وكانت الحكومة على دراية غير كافية. فهي لم تكن تعرف دائماً بصورة جيدة ما كان تجري ممارسته عملياً على أرض الواقع.

أما بالنسبة لسفيره، فيجيز أن "أصحاب شركات صناعة الأسلحة ربما تجاوزوا الحدود التي ثبتها لهم السياسيون".

❖ ❖ ❖

إرهابيون يلقون ترحيباً جيداً

ابتداءً من ١٩٨١، كان المثل السيئ يأتي من أعلى. فما كاد فرانسوا ميتران يستقر في قصر الأليزيه، حتى قدم استقبال أثنين من المعارضين الإيرانيين الدليل الذي يشهد على تورط فرنسا. وإذا كان من الطبيعي أن يُمنحا حق اللجوء، فإن واحداً منهما قد استخدم لاحقاً هذا الحق من أجل أن يقود من بعيد فدائييه الساكنين في إيران.

في ٢٩ أيلول ١٩٨١، كان رئيس الجمهورية الإيراني سابقاً، أبو الحسن بني صدر، ومسعود رجوي، رئيس منظمة مجاهدي الشعب، قد فرا من إيران وهبطا في طائرة حطت في قاعدة إيفرو Evreux العسكرية في محافظة أور Eure. وطيلة سنوات، في حين لم يحترم بني صدر دائماً "واجب الالتزام" واستخدم الصحافة لتوجيه انتقادات لآيات الله، أقام رجوي، بالذات، مقر قيادة عامة حقيقياً في أوفرسيرواز Auvers-sur-Oise. وهو عبارة عن مجمع مكون من مساكن محمية جيداً تضم محطة بث لا سلكي تتمكن من توجيه رسائل إلى إيران، إضافة إلى بعض خلايا المناضلين العاصين.

وقد تعاون رجوي لعدة سنوات مع مديرية مراقبة الأراضي DST، رغم أن العاملين في جهاز مكافحة التجسس هذا يعلمون أن بعض العمليات الإرهابية المنفذة في إيران يتخذ القرار بها ويجري الإعداد لها في أوفرسيرواز.

أفاد موظف كبير في وزارة الخارجية قائلاً:

"في الوزارة، كان رجوي يقدم قوائم بأسماء الإيرانيين الذين يتوجب منحهم سمات دخول إلى فرنسا. وقد كان معروفاً أن القوائم تضم أسماء إرهابيين، ولكن مع ذلك كان يتم منح هذه السمات ..."

وسرعان ما أصبح وجود رجوي في فرنسا رمزا للتورط الفرنسي، والذي انتقده سفير بهذه العبارات:

"نتهم إيران بالممارسات الإرهابية، ولكننا نحن، كيف تصرفنا؟ لقد كنا نتسامح مع وجود مئات من المجاهدين الذين يهيئون، في فرنسا، عمليات اعتداءاتهم كما أنهم كانوا يمتلكون حتى محطة إذاعة."

❖ ❖ ❖

أربع معجزات تحت التعاقد

حتى قبل الإعارة الشهيرة، في عام ١٩٨٣، لطائرات السوبرايتندار، جرى التوقيع، في أيلول ١٩٨١، على عقد اعتبر استثنائياً في حينه. والمقصود هنا تجهيز العراق بمدفع متطور للغاية، لم تجهز به بعد كتائب مدفعية الجيش الفرنسي، ولكن سبق أن أرسل إلى العربية السعودية.

هذا المدفع ١٥٥، الذي يعتبر الأفضل في العالم، يمتاز بوتيرة رماية عالية. ست قذائف في الدقيقة ولمدى أربعين كيلومتراً. ومنصوب على دبابة AMX. وابتداءً من ١٩٨٢، تم تسليم خمسة وثمانين من هذه المدافع لمدفعية صدام حسين، والتي مكنته من "حصد" موجات الهجوم الإيرانية، استنادا لتعبير مهندس فرنسي تابع للمجموعة الصناعية الفرنسية المختصة بالتسليح البري، والذي شاهد بنفسه حتما نتيجة استخدام هذه المدافع، في واحدة من تلك المعارك.(٤٤)

وجرى التوقيع على عقد مهم ثان في عام ١٩٨٢، نص على تجهيز العراق بطراز من الطائرات لم يمتلكه بعد سلاح الجو الفرنسي. ولأن إعدادها كان يتطلب بعض الوقت، فإن عمليات التسليم لم تبدأ إلا في عام ١٩٨٥, وعملت شركة داسو على تحويل طائرات الميراج ف١، التي سبق أن طلبتها بغداد، والتي كان متوقعا لها أن تغدو "بوليس السماء"، إلى طائرات هجومية لضرب أهداف أرضية وبحرية. وقادرة على التحليق على مستوى منخفض.

أفاد طيار فرنسي كان يعرف جيدا ما يخص هذا الموضوع: "لقد صغنا لهم حلية حقيقية، فهذه الطائرة مزودة بجهاز مركزي معدل للقصور الذاتي يمكن توجيهها نحو هدفها، إضافة إلى كثير من الإمكانيات العملياتية التي لم تمتلكها حينذاك طائراتنا الميراج ف١ الخاصة بنا. لقد كان بمقدور الميراج ف١ العراقية إطلاق صاروخين من نوع إكسوسه، وكذلك الحال بالنسبة للصاروخ آرما Arma المضاد للرادار؛ كما أن بمقدورها التزود بالوقود وهي محلقة في الجو عن طريق طائرة أخرى من نوع ميراج تقوم بعملية الإرضاع. وتمتلك نظاماً بصرياً يمكن الطيار، في حالة كون الجو صافياً، من أن يرى لمسافة مئة كيلومتر وبدقة متر واحد ... ولقد كانت تمتلك كذلك جهاز تسديد آتلي Atlis لتحديد الأهداف من صنع تومسون، ومنظومات تشويش، وتتبع إلكتروني، وكلمة سر للتعرف عليها أثناء التحليق. وأخيراً، فقد كان من المقرر أن تتمكن هذه الطائرة كذلك من إطلاق الصاروخ AS30L الموجه بالليزر.

❖ ❖ ❖

إن الصاروخ AS30L، مفخرة شركة إيروسباسيال، صانعته، يعتبر أفضل صاروخ بين صنفه، بنوعية تفوق نوعية منافسه الأمريكي الصاروخ مافرك Mave-rick. فبيع صاروخ كهذا إلى دولة في حالة حرب هو ليس إذن مجرد عملية تجارية بسيطة. لقد جرى التوقيع على العقد في عام ١٩٨٢، لكن سلسلة الإنتاج لم تبدأ إلا في عام ,١٩٨٤ وكان طيران صدام حسين قد طلب خمسمائة وتسعين من هذه الصواريخ، ولكنه لم يتسلم منها سوى مائتين وأربعين (٤٥).

وصفت وثيقة معدة من قبل إيروسباسيال، نشرت بتاريخ ٣٠ كانون الثاني ١٩٩١، مزايا هذا "المنتوج" وأكدت بنبرة مسالمة: "يجب عدم إهمال الطابع "الإنساني" للصاروخ AS30L الموجه بالليزر الذي يتلافى إلحاق الأضرار الحتمية بالسكان المدنيين المجاورين للهدف".

بعد أن يتم إطلاق هذا الصاروخ من مسافة حوالي عشرة كيلومترات عن هدفه، الذي يظهر أمام قائد الطائرة على شكل "صورة مكبرة وواضحة" على شاشة فيديو، يخترق بسرعة تفوق سرعة الصوت الهدف. دعامة جسر، شباك، باب. الذي يضاء بحزمة من أشعة ليزر، وبدقة أقل من متر. والصاروخ AS30L يستطيع اختراق مترين من الخرسانة المسلحة قبل أن ينفجر. أما بالنسبة لقائد الطائرة، فإنه يستدير بسرعة ويتمكن من الفرار وهو على مسافة ثمانية كيلومترات عن الهدف.

في عام ١٩٨٥، جرى تسليم الشحنات الأولى من الصاروخ AS30L واستخدمت من قبل طياري صدام حسين. وبعد مضي بضعة أشهر، التقى القائم بالأعمال في طهران، جان بيران Jean Perrin، برفيق دوست، قائد الباسدران، حراس الثورة، وقد طلب الدبلوماسي الفرنسي منه المساعدة في تحرير الرهائن الفرنسيين المحتجزين في لبنان.

إن الرد الإيراني المنقول ببرقية مجفرة إلى الخارجية الفرنسية يمكن تلخيصه بما يلي:

---

(٤١) في عام ١٩٧٤، وافق الشاه على منح فرنسا قرضاً بمبلغ مليار دولار لغرض المساهمة بما مقداره ١٠٪ من رأس مال إيروديف Eurodif، وهي مجموعة شركات متعددة الجنسيات لتخصيب اليورانيوم.

(٤٢) في ٢٢ آذار ١٩٨٥، جرى اختطاف مارسيل فونتين Marcel Fontaine ومارسيل كارتون Marcel Carton. وفي ٢٢ مايس، جرى اختطاف جان بول كوفمان Jean-Paul Kaufmanne وميشيل سورا . Michel Seurat (43) يترأس الدائرة العمومية للجو الجنرال جاك ميتران، أخو رئيس الدولة. أما فيليب إسبه Philippe Esper، فقد تقرر تكليفه بتولي هذه المفاوضات المثيرة للاستغراب. (٤٤) بلغ المجموع حوالي مائتي مدفع من هذا النوع أرسلت إلى العراق أثناء الحرب مع إيران.

(٤٥) لقد توقف تسليم هذه الصواريخ، في عام ١٩٨٨، في اللحظة التي اعتبرت فيها الأوساط المالية الديون العراقية قد غدت مرتفعة جداً.